

تفسير ابن كثير

يقول تعالى مخاطباً لمن زعم من المشركين أن ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ليس بحق وأنه شيء افتعله من تلقاء نفسه أو أنه أتاه به رئي من الجن فنزعه الله سبحانه وتعالى جناب رسوله عن قولهم وافتراهم ونبيه أن ما جاء به إنما هو من عند الله وأنه تنزيله ووحيه نزل به ملك كريم أمين عظيم وأنه ليس من قبل الشياطين فإنهم ليس لهم رغبة في مثل هذا القرآن العظيم وإنما ينزلون على من يشاكلهم ويشا بهم من الكهان الكذبة ولهذا قال الله تعالى : { هل أنبئكم } أي أخبركم { على من تنزل الشياطين * تنزل على كل أفالك أثيم } أي كذوب في قوله وهو الأفالك { أثيم } وهو الفاجر في أفعاله وهذا هو الذي تنزل عليه الشياطين من الكهان وما جرى مجراهم من الكذبة الفسقة فإن الشياطين أيضاً كذبة فسقة { يلقون السمع } أي يسترقون السمع من السماء فيسمعون الكلمة من علم الغيب فيزידون معها مائة كذبة ثم يلقونها إلى أوليائهم من الإنس فيحدثون بها فيصدقهم الناس في كل ما قالوه بسبب صدقهم في تلك الكلمة التي سمعت من السماء كما صح بذلك الحديث .

كما رواه البخاري من حديث الزهرى : أخبرنى يحيى بن عروة بن الزبير أنه سمع عروة بن الزبير يقول : قالت عائشة بنت أبي بكر : سأله ناس النبي صلى الله عليه وسلم عن الكهان فقال [إنهم ليسوا بشيء قالوا : يا رسول الله فإنهم يحدثون بالشيء يكون حقاً فقال النبي صلى الله عليه وسلم تلك الكلمة من الحق يخطفها الجن فيقرقرها في أذن ولية كفرقرة الدجاج فيخلطون معها أكثر من مائة كذبة] وروى البخاري أيضاً : حدثنا الحميدي حدثنا سفيان حدثنا عمرو قال : سمعت عكرمة يقول : سمعت أبا هريرة يقول : إن النبي صلى الله عليه وسلم قال [إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاً لقوله لأنها سلسلة على صفوان فإذا فزع عن قلوبهم قالوا : ماذا قال ربكم ؟ قالوا للذي قال : الحق وهو العلي الكبير فيسمعها مسترقو السمع ومسترقو السمع هكذا بعضهم فوق بعض - وصف سفيان بيده فحرفها وبدد بين أصابعه - فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته ثم يلقيها الآخر إلى من تحته حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها وربما ألقاها قبل أن يدركه فيكذب معها مائة كذبة فيقال : أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا : كذا وكذا ؟ فيصدق بتلك الكلمة التي سمعت من السماء] تفرد به البخاري وروى مسلم من حديث الزهرى عن علي بن الحسين عن ابن عباس عن رحالة من الأنصار قريباً من هذا وسيأتي عند قوله تعالى في سبأ { حتى إذا فزع عن قلوبهم } الآية .

وقال البخاري : وقال الليث : حدثني خالد بن يزيد عن سعيد بن أبي هلال أن أبو الأسود

أخبره عن عروة عن عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال [إن الملائكة تحدث في العنان - والعنان : الغمام - بالأمر في الأرض فتسمع الشياطين الكلمة فتقرها في أذن الكاهن كما تقر القارورة فيزيدون معها مائة كذبة] ورواه البخاري في موضع آخر في كتاب بدء الخلق عن سعيد بن أبي مريم عن الليث عن عبد الله بن أبي جعفر عن أبي الأسود محمد بن عبد الرحمن عن عروة عن عائشة بنحوه .

وقوله تعالى : { والشعراء يتبعهم الغاون } قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : يعني الكفار يتبعهم ضلال الإنس والجن وكذا قال مجاهد وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهما وقال عكرمة : كان الشاعران يتهاجيان فينتصر لهذا فئام من الناس ولهذا فئام من الناس فأنزل الله تعالى : { والشعراء يتبعهم الغاون } وقال الإمام أحمد : حدثنا قتيبة حدثنا ليث عن ابن الهداد عن يحيى مولى مصعب بن الزبير عن أبي سعيد قال : بينما نحن نسير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعرج إذ عرض شاعر ينشد فقال النبي صلى الله عليه وسلم [خذوا الشيطان - أو أمسكوا الشيطان - لأن يمتليء جوف أحدكم قيحاً خير له من أن يمتليء شرعاً] .

وقوله تعالى : { ألم تر أنهم في كل واد يهيمنون } قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : في كل لغو يخوضون وقال الضحاك عن ابن عباس : في كل فن من الكلام وكذا قال مجاهد وغيره وقال الحسن البصري : قد والله رأينا أوديتم التي يهيمنون فيها مرة في شتمه فلان ومرة في مدحه فلان وقال قتادة : الشاعر يمدح قوماً بباطل ويذم قوماً بباطل وقوله تعالى : { وأنهم يقولون ما لا يفعلون } قال العوفي عن ابن عباس : كان رجلان على عهد رسول الله أحدهما من الأنصار والآخر من قوم آخرين وإنهما تهاجياً فكان مع كل واحد منهما غواة من قومه وهم السفهاء فقال الله تعالى : { والشعراء يتبعهم الغاون } * ألم تر أنهم في كل واد يهيمنون * وأنهم يقولون ما لا يفعلون } وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : أكثر قولهم يكذبون فيه وهذا الذي قاله ابن عباس به هو الواقع في نفس الأمر فإن الشعراء يتبعحون بأقوال وأفعال لم تصدر منهم ولا عنهم فيتكلرون بما ليس لهم ولهذا اختلف العلماء رحهم الله : فيما إذا اعترض الشاعر في شعره بما يوجب حداً : هل يقام عليه بهذا الاعتراف أم لا لأنهم يقولون ما لا يفعلون ؟ على قولين وقد ذكر محمد بن إسحاق ومحمد بن سعد في الطبقات والزبير بن بكار في كتاب الفكاهة أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب به استعمل النعمان بن عدي بن نصلة على ميسان من أرض البصرة وكان يقول الشعر فقال : .

(ألا هل أتي الحسناء أن حليلها ... بميسان يسقي في زجاج وحنتم) .

(إذا شئت غنتني دها قين قرية ... ورقاصة تجذوا على كل منسم) .

(وإن كنت ندماً ندي فبالأكبر اسقني ... ولا تسقني بالأصغر المثلث) .

(لعل أمير المؤمنين يسأله ... تنادموا بالجوسق المتهدم) .

فلما بلغ ذلك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ص قال : إِي وَاهْ إِنَّهُ لِيَسُؤْلُنِي ذَلِكَ وَمِنْ لَقِيهِ فَلِيَخْبُرْنِي أَنِّي قَدْ عَزَّلْتَهُ وَكَتَبْتَ إِلَيْهِ عَمْرَ { بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ } { حَمْ * تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنْ أَنَّ الْعَزِيزَ الْعَلِيمَ * غَافِرَ الذَّنْبِ وَقَابِلَ التَّوْبَ شَدِيدَ الْعِقَابِ ذِي الْطُولِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمُصِيرُ } - أَمَّا بَعْدَ - قَدْ بَلَغْنِي قَوْلُكَ : .

(لعل أمير المؤمنين يسأله ... تنادموا بالجوسق المتهدم) .

وَإِيمَانَهُ إِنَّهُ لِيَسُؤْلُنِي وَقَدْ عَزَّلْتَكَ فَلَمَّا قَدِمَ عَلَى عَمْرٍ بْنِ كَتَمِهِ بَهْذَا الشِّعْرِ فَقَالَ : وَاهْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا شَرِبْتَهَا قَطْ وَمَا ذَاكَ الشِّعْرُ إِلَّا شَيْءٌ طَفِيفٌ عَلَى لِسَانِي فَقَالَ عَمْرٌ : أَطْنَ ذَلِكَ وَلَكِنْ وَاهْ لَا تَعْمَلُ لِي عَمَلاً أَبْدَاهُ وَقَدْ قَلَتْ مَا قَلَتْ فَلَمْ يَذْكُرْ أَنَّهُ حَدَّهُ عَلَى الشَّرَابِ وَقَدْ ضَمَّنَهُ شِعرُهُ لِأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ وَلَكِنَّهُ ذَمَّهُ عَمْرَ ص وَلَامَهُ عَلَى ذَلِكَ وَعَزَّلَهُ بَهْ وَلَهُذَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ [لَأَنَّ يَمْتَلِئَ جَوْفَ أَحَدِكُمْ قِبَحًا يَرِيهِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَمْتَلِئَ شَعْرًا] وَالْمَرْادُ مِنْ هَذَا أَنَّ الرَّسُولَ صَلَّى أَنَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْهِ هَذَا الْقُرْآنَ لَيْسَ بِكَاهِنٍ وَلَا بِشَاعِرٍ لِأَنَّ حَالَهُ مَنَافِ لِحَالِهِمْ مِنْ وُجُوهٍ ظَاهِرَةٍ كَمَا قَالَ تَعَالَى : { وَمَا عَلِمْنَاهُ شِعْرًا وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنَّهُ لَا ذَكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ } وَقَالَ تَعَالَى : { إِنَّهُ لِقَوْلِ رَسُولِ كَرِيمٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تَؤْمِنُونَ * وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ * تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ } وَهَذَا قَالَ هُنَّا : { إِنَّهُ لِتَنْزِيلِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذَرِينَ * بِلِسَانِ عَرَبِيِّ مُبِينٍ } إِلَى أَنَّهُ قَالَ { وَمَا تَنْزَلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ * وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ * إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ } إِلَى أَنَّهُ قَالَ { هَلْ أَنْبَئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنْزَلَ الشَّيَاطِينُ * تَنْزَلٌ عَلَى كُلِّ أَفَاكِ أَثِيمٍ * يَلْقَوْنَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَاذِبُونَ * وَالشَّعْرَاءُ يَتَبَعَّهُمُ الْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ } .

وَقَوْلُهُ { إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ } قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ عَنْ يَزِيدِ بْنِ عَبْدِ أَنَّ بْنِ قَسِيبٍ عَنْ أَبِي الْحَسْنِ سَالِمِ الْبَرَادِ مُولَى تَمِيمِ الدَّارِيِّ قَالَ : لَمَّا نَزَلَتْ { وَالشَّعْرَاءُ يَتَبَعَّهُمُ الْغَاوُونَ } [جَاءَ حَسَانَ بْنَ ثَابَتَ وَعَبْدَ أَنَّ بْنَ رَوَاحَةَ وَكَعْبَ بْنَ مَالِكٍ إِلَى رَسُولِ أَنَّهُ صَلَّى أَنَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُمْ يَبْكُونَ فَقَالُوا : قَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّهُ حِينَ أَنْزَلَ هَذِهِ الْآيَةَ أَنَا شَعْرَاءُ فَتْلَا النَّبِيِّ { إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ }] قَالَ : أَنْتُمْ { وَذَكَرُوا أَنَّهُ كَثِيرًا } قَالَ : أَنْتُمْ { وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا } قَالَ : أَنْتُمْ [رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَابْنُ جَرِيرٍ مِنْ رِوَايَةِ ابْنِ إِسْحَاقِ وَقَدْ رُوِيَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ أَيْضًا عَنْ أَبِي سَعِيدِ الْحُبَشِ عَنْ أَبِي أَسَامَةَ عَنْ الْوَلِيدِ بْنِ أَبِي كَثِيرٍ عَنْ يَزِيدِ عَنْ عَبْدِ أَنَّهُ عَنْ أَبِي الْحَسْنِ مُولَى بْنِي نُوفَلٍ أَنَّ حَسَانَ بْنَ ثَابَتَ وَعَبْدَ أَنَّ بْنَ رَوَاحَةَ أَتَيَا رَسُولَ أَنَّهُ صَلَّى أَنَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةَ { وَالشَّعْرَاءُ يَتَبَعَّهُمُ الْغَاوُونَ } يَبْكِيَانَ فَقَالَ رَسُولُ أَنَّهُ صَلَّى أَنَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةَ { وَالشَّعْرَاءُ يَتَبَعَّهُمُ الْغَاوُونَ } حَتَّى بَلَغَ { إِلَّا الَّذِينَ

آمنوا وعملوا الصالحات } قال [أنتم] .

وقال أيضاً حدثنا أبي حدثنا أبو مسلم حدثنا حماد بن سلمة عن هشام بن عروة قال : لما نزلت { والشعراء يتبعهم الغاون } إلى قوله { وأنهم يقولون ما لا يفعلون } قال عبد الله بن رواحة : يا رسول الله قد علمت أنني منهم فأنزل الله تعالى : { إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات } الآية وهكذا قال ابن عباس وعكرمة مجاهد وقتادة وزيد بن أسلم وغير واحد : أن هذا استثناء مما تقدم ولا شك أنه استثناء ولكن هذه السورة مكية فكيف يكون سبب نزول هذه الآيات شعراء الأنصار ؟ وفي ذلك نظر ولم يتقدم إلا مرسلاً لا يعتمد عليها وإنما أعلم ولكن هذا الاستثناء يدخل فيه شعراء الأنصار وغيرهم حتى يدخل فيه من كان متلبساً من شعراء الجاهلية بذم الإسلام وأهله ثم تاب وأناب ورجع وأقلع وعمل صالحاً وذكر الله كثيراً في مقابلة ما تقدم من الكلام السيء فإن الحسنات يذهبن السينات وامتحن الإسلام وأهله في مقابلة ما كان يذمه كما قال عبد الله بن الزبير حين أسلم :

(يا رسول الملك إن لساني ... راتق ما فتق إذ أنا بور) .

(إذ أجرى الشيطان في سنن الف ... ي ومن مال ميله مثير) .

وكذلك أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب كان من أشد الناس عداوة للنبي صلى الله عليه وسلم وهو ابن عمته وأكثرهم له هجوا فلما أسلم لم يكن أحد أحب إليه من رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان يمدح رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ما كان يهجوه ويتوهه وبعد ما كان قد عاداه وهكذا روى مسلم في صحيحه عن ابن عباس أن أبو سفيان صخر بن حرب لما أسلم قال : [يا رسول الله ثلاث أطعنيهن قال : نعم قال : معاوية تجعله كاتباً بين يديك ؟ قال : نعم قال وتأمرني حتى أقاتل الكفار كما كنت أقاتل المسلمين ؟ قال : نعم وذكر الثالثة] ولهذا قال تعالى : { إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذروا الله كثيراً } قيل : معناه ذروا الله كثيراً في كلامهم وقيل في شعرهم كلاماً صحيحاً مكفر لما سبق .

وقوله تعالى : { وانتصروا من بعد ما ظلموا } قال ابن عباس : يردون على الكفار الذين كانوا يهجون به المؤمنين وكذا قال مجاهد وقتادة وغير واحد وهذا كما ثبت في الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لحسان [اهجم - أو قال - هاجهم وجبريل معك] وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن الزهري عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه أنه قال للنبي والذى ولسانه بسيفه يجاهد المؤمن إن [فقال أنزل ما الشعرا في أنزل قد الله إن : نفسي بيده لكأن ما ترمونهم به نضح النبل] .

وقوله تعالى : { وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون } كقوله تعالى : { يوم لا ينفع الطالمين معذرتهم } الآية وفي الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال [إياكم والظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيمة] قال قتادة بن دعامة في قوله تعالى : { وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب

ينقلبون } يعني من الشعراء وغيرهم وقال أبو داود الطيالسي : حدثنا إياس بن أبي تميمة قال : حضرت الحسن ومر عليه بجنازة نصرااني فقال : { وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون } وقال عبد الله بن أبي رباح عن صفوان بن محرز أنه كان إذا قرأ هذه الآية بكى حتى ينقلبون } . أقول قد اندق قضيب زوره { وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون } .

وقال ابن وهب : أخبرنا شريح الإسكندراني عن بعض المشيخة أنهم كانوا بأرض الروم في بينما هم ليلة على نار يشتوون عليها أو يصطلون إذا بر Kapoor قد أقبلوا فقاموا إليهم فإذا فضالة بن عبيد فيهم فأنزلوه فجلس معهم - قال - وصاحب لنا قائم قال يصلي حتى مر بهذه الآية { وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون } قال فضالة بن عبيد : هؤلاء الذين يخربون البيت وقيل : المراد بهم أهل مكة وقيل الذين ظلموا من المشركين وال الصحيح أن هذه الآية عامة في كل ظالم كما قال ابن أبي حاتم : ذكر عن زكريا بن يحيى الواسطي حدثني الهيثم بن محفوظ أبو سعد النهدي حدثنا محمد بن عبد الرحمن بن المحبر حدثنا هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة بها قالت : كتب أبي في وصيته سطرين : بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أوصى به أبو بكر بن أبي قحافة عند خروجه من الدنيا حين يؤمن الكافر وينتهي الفاجر ويصدق الكاذب إنني استخلفت عليكم عمر بن الخطاب فإن يعدل فذاك طني به ورجائي فيه وإن يحر ويبدل فلا أعلم الغيب { وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون } آخر تفسير سورة الشعراء والحمد لله رب العالمين